الفصل السابع

إمارة عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس، مؤلّف هذا الكتاب

(٣) قدوم المرابطين إلى الأندلُس وموقعة الزَّلاَّقة ومحاصرة حِصْن لِيِّيط

٤٦ - مقدِّمات تدخل المرابطين فى شؤون الأندلُس

وبَقِيَت أَحوالنا على أَفْضَل ما يمكن، وبَلَغْنا من آمالنا غايتها، إلى أن حَدَثَ أَمْرُ الـمُرابِطين – أَعَزَّهم الله –. وكُنَّا رأينا كَلَب النصرانيّ على الجزيرة وأَخْذَه لطُلَيْطُلَة، وقلّة رفقه، بعد ما كان يقنع منَّا بالجزْية وصار يروم أَخْذَ القواعِد، وأنَّ أَخْذَه لطُلَيْطُلَة للضعف المتوالى عليها عامًا بعد عام؛ وكذلك كان من شأنه فى أخذ البلاد، إذ كان مَذْهَبُه أَلاَّ يُنازِل مَعْقِلاً، ولا يُفْسِدَ أجنادُه على مدِيَنةٍ، لبُعدِ مَرَامِهــا ومَن فيها من مخَالِفِى مِلَّتهِ، وإنمــا كان يأْخذ منها الجِزْية عامًا بعد عامٍ، ويعنف عليها بما شاءَ من أصناف التَّعَدِّى، إلى أن تضعف وتلقى بيدها كما فَعَلَتْ.

فوقع من ذلك فى الأَنْدَلُس رجَّةٌ عظيمةٌ، وأُشــرب أهلها خَوْفًا وقَطْعَ رجاء من اســتيطانها وجــرَتْ بين المعْتَمِدِ وأَلْفُونْش مُخالَفات كثيرةٌ، وســأله أن يتخلّــى له مَعاقِلَ كان الموتُ عنده أَوْلى من إعطائها. فوجست نفسُه منه بالجملة، ورَام كَسْرَه بطوائف المُرابِطين، وضَرْب بَعْضِهم ببَعض للقَدَر الذى شاءَ الله:

إذا لـم يـكـن عَـوْنٌ مـن الله للـفَتَى ... فأكْـثَـرُ مـا يَـجْـنِى عـلـيه اجتهَادُهُ

وقــد *[ق ٤٢ أ] كان أخونا صاحِبُ مالَقة، للفِتنة التى كانت بَيْننا وبيْنه، قد داخَلَهم قَبْــلُ يســتغِيثُ بهم، ويرجــو الانتقام مِنَّا بهــم، وأن يُدْرِكوهُ مافاتَهُ مــن مملكة جدِّه؛ وظَنَّ أنّــه، عند ظهورهم، يقســم الأمــوال بينى وبيْنَــه. وكان هذا الخِلافُ كلُّه من ســعادة أمير المسلمين، ورأى من تَشَتُّتِنا أنّه لا مشقّة تكون عليه فى أَخْذِ بَعْضَنا ببعضٍ متى شاءَ، فلم يُجِبْهُ الأَمِيرُ إلى شيءٍ، ولا كان وَقْتُه، وهو يُلِحُّ عليه بقلّة الدربة.

٤٧ - إرسال سفارات أنْدَلُسيَّة إلى مَرَّاكش احتلال المرابطين الجزيرة الخَضْرَاء

وقد كان رُسُلُ المعتمد قبل هذا قد وردت عليه، تُعلمه أن يتأَهَّبَ للجهاد، وتَعِدُه بإخْلاءِ الجزيرة الخضراءِ، وأنه لا يَصِلُ إلى سَـبْتة إلاّ ويَضَعُها فى يديه. فلمَّا وصل متأَهِّبًا لذلك، بمن احتفل به

من جيشه، قدَّم رُسُلَه إلى المُعْتمِد، منهم عبدُ الملك القاضى. وابنُ الأحسن، فَأَمْسَكَهُم بإشبيلية مُدَّةً طويلةً، وأميرُ المسلمين فى ذلك مُتَقَلِّقٌ لورودهم، فأرسل معهم من شيوخ إشبيلية من يقول له: «تَرَبَّصْ من سبتة مُدَّةً من ثلاثين يومًا، إلى أن نُخلِى لك الجزيرة.» فأجابهم إلى هذا، وسألوه خطَّ يده وبالتربُّص. فأشْعِرَ الأميرُ بذلك، وقيل له: «لم يَجْعَلْك ابن عَبَّاد فى هذا الالْتِواءِ إلا لأنَّه يُريد أن يرسل إلى ألْفُونْش يُعلمه بقدومك: ولعلَّه يتأتَّى له منه ما يرغب، ويُهدِّده بك، ويسألهُ أن يُعاقِدَه على أنْ يَهبَه الجِزْية أعوامًا. فإن فعل استجاش عسكره على الجزيرة، ومنعك الجواز، فَاسْبَقْهُ إليها! وإن كان النصرانى لا يتأتَّى له، أرْسَلَ إليك فى الجواز!»

ولَمَّا انفصل الرُّسُلُ عنه بنيَّة التَّرَبُّص فى إخلاءِ الجزيرة ثلاثين يومًا، جهَّز عسكرًا مُقَدَّمًا من نحو خمسمائة فارس، وأرسلهم فى أثرهم، فلم تَصِل الرُّسُلُ إلى الجزيرة آخر النهار إلَّا والعسكر فى أثرهم قد عَدَوْا ونزلوا بدار الصِّناعة، فالتفت القومُ إلى خَيْل قد ضربَتْ مَحَلَّتها، لم يُدْرَ متى أقبلت، ولمْ يُصْبَحَ لهم إلَّا وظائفُ أُخْرَى بعدها، يزيدون ويترادَفون * [ق ٤٢ ب]، حتى انكمل العسكر كلُّه على الجزيرة مع داوود بن عائشة، وأحدقوا حوالَيْها يحرسونها. ونادَى داوود بالراضى، وقال له: «وَعَدْتُمونا بالجزيرة! ونحن نأْتِ لأَخْذِ بلدةٍ ولا ضَرَرَ بسلطان! إنَّما أتَيْنا للجهاد! فامَّا أن تُخْليها من هنا إلى وقت الظُّهْر من يومنا هذا، وإلَّا، فالذى تقدر عليه، فَاصْنَعْ!»

وخاطبَ أميرُ المسلمين ابن[1] عبَّاد، يُعلمه بما صنع، ويقول له: «كفَيْناكَ مؤنَة القطائع وإرسالَ الأقوات لأجْنادنا كما وَعَدْت!» فأرسل المُعْتَمِدُ لابنه الراضِى فى إخلائها لهم، وحصل فيها داوود، وأتى الأميرُ إليها، ودخلها ناظِرًا إليها، ثمَّ انصرف إلى سَبْتة إلى وقت إقباله. وأمر داوود بالتقدُّم إلى إشبيلِيَة، فاستوفت العساكر على إشْبِيلِّية.

وقد كان رُسُلُنا مضوا مع رُسُل المُعْتَمِد إلى أمير المسلمين، على اتفاق ضمَّ بَعْضُنا فيه بَعْضًا إلى حقيقة، وعاقَدْنا أمير المسلمين على أن تتَّصل الأيدى على غَزْوِ الرُّوم بمعونته، وألَّا يعرض لأحَدنا فى بلده، ولا يقبل عليه رعيَّته بمن يروم الفساد عليه.

٤٨ - تجُمع جيوش الأندلُسيين برسم الجهاد

وأرسل [أمير المسلمين]، عند حُلُوله بإشْبِيلية، عن جميع الرؤساءِ. فأمَّا ابنُ صُمَادِح، فأبى عليه [وبقى] مُتَرَبِّصًا ليَرَى كيفيَّةَ الأَمْر ومَخْرَجَهَ مع الرُّوم؛ واعتذر بكبر السنِّ مع الضعف، وأرسل ابنَه مُعْتَذِرًا. وبادَرْنا نحْنُ إلى الخروج، وسُرِرْنا بذلك، وأَعْدَدْنا ما اسْتَطَعْنا عليه للجهاد بأموالنا. ورجالنا؛ وقدَّمْنا الهَدِيَّة إلى أمير المسلمين، وأَمَرْنا بضرب الطَّبْل وما يُسْتَعَدُّ به للفرح، عند مُخاطَبَته لنا بدخول الجزيرة. وظَنَنَّا أنَّ إقباله إلى الأنْدَلُس منَّةٌ من الله عظُمَتْ لَدَيْنا، لا سِيَّما خاصَّةً من أجْل القرابة، وللذى شاع من خيرهم، وإقبالهم على طَلَب الآخرة، وحُكْمِهم بالحقّ، فنعمل أنْفُسَنا وأمْوَالَنا فى الجِهاد معه كلَّ عامٍ: فمن عاش

(١) أصل: «لابن».

مِنَّا كان عزيزًا، تحت ستر وحمايةٍ، ومن مات كان شهيدًا. والعجبُ فى تلك السفرة من حُسْن النيَّات، * [ق ٤٣ أ] وإخْلاص الضمائر، كأنَّ القلوب إنَّما جمعت على ذلك.

ولقينا أمير المسلمين فى طريقة إلى بَطَلْيَوسْ بجَريشة، ورأيْنا من إكرامه لنا وتحفِّيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبةً، لو استطَعْنا أن نمنحه لحومَنا، فَضْلًا على أموالنا، ولقَيْنا المُتَوَكِّلَ بنَ الأفْطَس مُحْتَفِلًا بعسكره: كلٌّ يرغب فى الجهاد، قد أعمل جَهْدَه، ووطَّن على الموت نفسه.

٤٩ - موقعة الزَّلَّاقة وانتصار المسلمين على أَلْفُونْش السادس

وتَلَوَّمْنا ببَطَلْيَوْس أيَّامًا، حتَّى صحَّ عندنا إقبال أَلْفُونْش فى حفلة، يروم المُلاقاة، ويظنُّ أنه يهزم الجيش لقلَّة معرفته به قبل. وساقَهُ القَدَر إلى أن توغَّل فى بلاد المسلمين، وأبعد عن أنظاره، ونحن بإزاء المدينة، متَرَبِّصون: إن كانت لنا، فيها ونِعْمَتْ، وإن لم تكُن، كانت وراءَنا حِرْزًا ومَعْقِلًا نأوى إليها. وأمير المسلمين يُدبِّر هذا الأمر بُحسْن رأْيه، ويلتوى، عسى [أن] تقع المُلاقاة بتلك الناحية، دون أن يحْوَج إلى التوغُّل فى بلادهم. وهم، كما دخلوا الأندلُس، ولا يعرفون مَنْ لَهمْ أو عليهم، ورَجَا بأن يكون الرُّومىُّ لا يَخْرُجُ إليه أحدٌ، فيَنْصَرف طريقة، ويكفى الله المؤمنين القتال، إلى أن تُرِيَهُ الأمور وجوهَها. فلا يُسْمع إلا الأميرُ متَرَبِّصًا لالْتِيَاثٍ طافَ به، ولولا ذلك لكان فى أرضْ النصارى مُدَوِّخًا لها. والنصرانىُّ فى هذا كلِّه يقرب متعاطِيًا، لا يعمل حساب مَنْ يُغْلب، إن كانت عليه أن يكون بعيدًا من أنظاره، فيستأصِله السيفُ، ولو لم يكن إلاَّ يأْكُله الطريق وُبْعدُ المسافة.

ثمَّ أرسَل، على يدى ابن الأفْطَس، إلى أمير المسلمين، يقول له: «ها أنا قد أقْبَلْتُ أُريدُ ملاقاتك، وأنت تتربَّص وتختبئ لأَصْل المدينة!» فلم يكن بُدٌّ أن يُنْتَقل إليه، ليكون الجيش على مقربةٍ منه. وتوَاعَدا اللِّقاءَ فى يوم سَمَّيَاهُ. ولم يكن بَيْنَ المَحَلَّتَيْن إلَّا نحو ثلاثة أميال، فاستاغ المسلمون إلى ذلك الوعْد * [قَ ٤٣ ب]، وحلَّ الناس عن أنفُسهم؛ وكانت خَيْرةً أن لو رَكِبت الفِئَتَان، لم تنفصل إلا عن فقْدِ الأكثر من عسكر المسلمين، حسبما تُوجِبُه الموافقَة للقتال.

فَفَجَأهم عَسْكَرُ الرومىِّ، وهم على غير إعداد، وكان مختلسًا: إنَّما له ما ألْقَى فى تلك الساعة، وألْقَى سُمَّهُ فى الرَّحْل، ومات منهم خلائق ممَّن لم يكن يقدر على نفسه. فلم تَقَع الصيحة على الجيش [إلاَّ] وركبوا فى طَلبهم؛ وهُمْ قد كلُّوا وثَقُلَهم السِّلاح مع بُعْد المسافة. فاقتفى المسلمون آثارهم، وركبوهم بالسيْف، ومات من جيشهم خلائق، وتَبَدَّدوا فى الطريق فمن بَين قتيل ومَيْتٍ مُثَقَّل ضريع. ولو أن تلك الوقيعة تكون على إعداد من وقوف الفِئَتين ومناطَحتهما فى اللقاء، لفُقِدَ من الْعَسْكَرَيْن الأكثر، كالذى توجبه الرتبة؛ لكنَّ الله لطيفٌ بعباده، ولم يفقد من المسلمين إلاَّ الأقلّ. وانصرف أمير المسلمين راجعًا إلى إشبيلية على حال سلامةٍ ونصرٍ.

٥٠ - يوسُف بن تاشُفين يعقد مجلس رؤَساء الأندلُس بعد المعركة. بدءُ الخلاف بين المتحالفين

ولما انقَضَتْ غَزْوَتُه تلك، جَمَعنا فى مجلسه، أَعنى رؤساءَ الأندلُس، وأَمرَنا بالاتفّاق والائتلاف، وأن تكون الكلمة واحدة، وأنَّ النصارى لم تفْتَرِصنْا إلاّ للذى كان من تَشَتُّتنا واستعانة البعض بهم على البعض فأجابه الكلُ أنَّ وصيّته مقبولةٌ وأنَّ ظهوره ممّا يجمع الكُل على الطاعة والجَرْيِ إلى الحقيقة.

وانتدب إليه ذلك الوقتَ أخونا صاحِب مالَقة، وقال من غير رويَّة: «إنّ أحوالى قد ضاقت بتعدّى أخى على بلادى وميراثِ جَدّى!» يُشير بذلك أن يأخُذَ له الأمير بحقّه منّا. فلما قضى كلامه، قال له أمير المسلمين: «هَلْ لَقيْتَ أخاك فى هذا المعنى، وترامَيتَ عليه قبل مُخاطَبتك لى؟» فلما قال له: «لا!» رد عليه: «ماينبغى لنا ذلك إلا برضاه!» ولم يمكنّا فى ذلك الحين السكوت لِما يلزم من شُكْر الأمير، و [كانت] فرْصَةً لِتبْيَان الحجّة، وإقامة عذْرنا ألاّ يَنْتَسِبَ إلينا بَعْدُ نَسَبَهُ. فقلتُ* [ق ٤٤ ب] له: «إنَّ أمير المسلمين لم تكن غايَتهُ إلاّ ما هو بَسبيله من الجهاد؛ وهو لا يرضى أن ينقض ما أَحْكَمَه آباؤُنا من قسمة ما قسموه من بلادهم بين أبنائهم. وليس منّا أحدٌ حَصَلَ على شىءٍ بقُدْرتَه، إلاّ بما تهيّأ له عند الله والآباءِ من بعده، مع إجماع المسلمين على الرّضى بمن تخيّرُوه. وقد كان الشيخُ جدُّنا - رحمه الله - رتّب ذلك، ورأى أنَّ مالَقةَ لا غنَى بها من غَرْناطة، فجعل أمْرَها مصروفًا إلينا من بعده، كالذى كانت فى حياته. فانقضتَ من الأمرِ ما أبرم، وقطَعْتَنا، وأردتَ الاستبداد على غير حقيقة ولا أَصْل. ولو رأى جدُّك فى ذلك صلاحًا، لأعدَّ لك لذلك عُدَّةً تغنيك عنّا! ولمّا تعدّيْتَ المرّة بعد المرّة، سَعَيْنا فى صرف بعض الحال إلى مارتّبها عليه الجدُّ، ولم نبلغ فى ذلك الغاية التى تجبُ بانحياشك ونفارك. وهذا ما وقع! فإن شاءَ أميرُ المسلمين أن يبتنى من جديدٍ، وينقض ما رتّب الشيخ، فهو لنا بمنزلَتِهِ: أَمْرُهُ نافِذٌ! وإن رأى ما فُعِلَ من ذلك سدادًا وصلاحا، فلأىّ وجه نكلّفه ما لا يليق به؟» فلمّا تكلّمتُ بهذا، وَقَعَتْ مُساكَتَتُهُ. وأمر الأميرُ بانصرافنا، ولم يُعِدْ فى ذلك بَعْدَها مَجْلِسًا إلاّ فى سَفْرة لِبّيط الملعونة.

وأخذ أمير المسلمين فى الانصراف إلى بلاده، وهو قد اطّلع عيانًا وسماعًا من اختلاف كلِمَتِنا ما لم يَرَ وَجْهًا لبَقائنا فى الجزيرة. وأنسَ الجميعَ؛ ولم يتربَّص فى البلاد ألاّ يُوحِشَ سَلاطِينَها ممّا يتوقعونه من انحياش رعَّيتهم إليه؛ فكُل من شكا إليه ذلك الوقتَ من رعَّيةٍ، يقول له: «لم نأْتِ لهذا! والسلاطينُ أعْلَمُ بما يصنعون فى بلادهم!» حتى ازداد بذلك مَحَبَّةً إلى ما كان عليه فى قلوبنا، وإليه استنامةً ومَيْلاً. ورجع الكلُ إلى وَطَنه.

٥١ - عودة يوسُف بن تاشُفين إلى الأندلس حصار حصن لييط

وبقيت الحال على ذلك: قد أُشرب الرُّومُ من تلك الوقعية خَوْفًا وانكماشًا. ولم تَزَل الحالُ صالحةً إلى سَفْرة لِبّيط.

وإنَّ المُعْتَمِد بن عَبَّاد، لِمَا رأى من خِلاف ابن رَشيق عليه، وأنَّه أراد أن يَضَعَ ابنَه الراضِيَ بمُرْسِيَة عِوَضًا عن الجزيرة، صار بنفسه إلى أمير المسلمين، وجاز إليه البحر، يريه الطمأنينة، ويحكم معه *[ق ٤٤ ب] ماشاءَ من عَمَلٍ في مُرسِيَة وغيرها. وعَظَّمَ له شأنَ لِيِّيط، وأنه في قَلْب البَلَد، وأن لا راحة للمسلمين إلاّ بفَقْده، وعاقَدَهُ على أن يأتي عليه بنفسه ورجاله، لِكَيْ يَتَهيَّأَ سَلاَطِينُ الأندلس حَرْبه بعُدَدِهم وأجماعِهم، فيأمنوا مَنْ يُقْلعُهم عنه.

وأتَتْنا كُتُبُ الأمير، يأمُرنا عند جوازه، بالاستعداد للقتال وما شاكَلَ ذلك. فَفَعَلْنا، وبادَرْنا، رغبةً في الجهاد، ومَحَبَّةً فيه، وإيثارًا له، وخَرَجْنا إليه، ولقيناهُ في حَيِّزٍ من بَلَدنا، بما يُطابِقُ مِثْلَه من الهدايا والتُّحَف. وأجْمَعْنا على المسير إلى لِيِّيط.

فنازَلْناه على أتمِّ ما يمكن من الرجال والعُدَد، كلُّ رئيسٍ يقاتِلُهُ على حسب مجهوده، وما تبلغ استطاعتُه وحيلتُه، وهو قد امتلأ برعيَّة الجهة، كلُّها من النصارى، وأعدُّوا فيه ما يحتاج من كلِّ شيءٍ، فِعْلَ مَنْ نَظَرَ على سَعَةٍ، وهُمْ في ذلك يهدِّدون بمجيء ألفُونْش، ويريعون الحيلةَ بالتَّنيير كلَّ ليلةٍ، والقتالُ عليهم كلَّ يوم لا يفتر، مع البُنْيان في المواضع المُهِمَّة عليهم، ونَصْبِ المجانيق والعَرَّادات، حتَّى لم يَبْقَ عَمَلٌ يُرامُ به افتراضُ المَعاقِل إلا وصُنِعَ. وأتَى ابن صُمَادِح بفيلٍ أقامَهُ، وخرق به العادة: أصابَهُ من الحِصْن قَبَسُ نارٍ، فأحْرَقَهُ. وفي كلِّ ذلك لا ينجح عَمَلٌ، ولا تظهر فيه للمسلمين فُرْصَةٌ، لِمَا شاءَ الله من اختلاف الكلمة.

٥٢ - مُحاصَرة لِيِّيط تصوِّر فوضى ملوك الطوائف في ذلك الحين

وكانت تلك سفرةً أخرج الله فيها أضْغَانَ سَلاَطِينِ الأنْدَلُس. ورعيَّتُهم في ذلك يأتون أفواجًا، شاكين لِمَا وَجَدوا لمن أسندوا إليه: فالراضِي منهم يلتمس الزيادة، والساخِطُ يرجو الانتقام، وجعلوا في شكاويهم فُقَهاءَهُمْ وَسَائِطَ، يقصدون نحوهم: منهم الفقيه ابن القُلَيْعيِّ، قد صار خِباؤُه بتلك المَحلَّة مَغنَطِيسًا لكلِّ صادرٍ ووارِدٍ، يَجِدُ بهم السبيلَ إلى الطَّلَب، للقدَر الذي قدَّره الله.

ورأى سَلاطينُ الأنْدَلُس عند ذلك من تحامُق رعاياهم وامتناعهم من مَغارِم الاقطاع التي كانت عليهم، مع احتياجهم إلى الإنفاق، ما قلق به وساءَ الظنُّ من أجْله: *[ق ٤٥ أ] جيشٌ يكلِّفونه كلَّ عام، ومُجامَلاتٌ تلزم المرابِطين كثيرةٌ، وتُحَفٌ مُتَواليةٌ، لو فرط منها في شيء، لانخرمَتْ عليهمُ الأحوال، ثمَّ رعايا تمتنع من تأدِيَة ما تقوم به الحال الموصوفة؛ فلا حيلة إلاّ بين صبرٍ يؤدى إلى ملامةٍ توجب عقوبةً، او امتناعٍ يؤدى إلى استِئْصالٍ، كالذى جَرَى.

ونسمع في هذا كلِّه من أهل جهاتِنا تَهدُّدًا وعصيانًا انكرْناه، لا تتمُّ به مَملكةٌ، ولا يتهيَّأُ معه قضاءُ حاجةٍ. ولقد كان ابن القُلَيْعِيُّ المذكورُ في تلك المَحَلَّة يخاطِب إخوانه بحَضْرتنا ألاّ يعطونا شيئًا، ويَعِدُهم بما كان؛ فلمَّا كان يأتيهم الحفزُ مِنَّا، يقعُدون بنا، ونَحنُ أحْوَجُ ما كُنَّا إليه للإنفاق، لا سيمًا في تلك المحلَّة التي عُدَّتُنا فيها الأقوات إلاّ بالشراء كلَّ يوم فدخل علينا من ذلك ضَرَرٌ شنيعٌ.

وطالتْ تلك المَحَلَّةَ الملعونة، فكأنَّما مِثْلَقُ أَبانَ الطَّيبَ من الخبيث، وكشف العورات، فلم يَـزدَد الرؤَسـاء إلاَّ تَوَحُّشًـا، ولا الرعيَّـة إلاَّ تَسَـلُّطًا، ولا الداخِلون على مِثْـل هذه النصبة إلاَّ طمعًا، وحُقَّ لهم، مع اختلاف كلمة الرؤَسـاء، وهم فى أسـباب الغَرَق: فمن اغْتَرَّ منهم طالَـب صاحِبَه، وهو المَطْلوب، وشَـغَلَه ذلك ممَّا هو فى سـبيله، ومن ميَّـز، انفرد، لم يَجِد مُعِينًا حتَّى تَوَغَّلَ فى اللجَّة وأخذَتْه الحملة. وكانت مقدِّمات سـوءٍ، وزمانًا على السـلاطين عسيرًا، وسَعْدًا للمُرابطين مُقْتَبِلًا.

٥٣ - النزاع بين ابن عبَّاد وبين ابن رَشِيق

وأتـى ابنُ رشَـيق عند ذلك مفُسـدًا بزَعْمه لِمَا عقده ابن عبَّاد مـع الأمير؛ وبذلك الأموال للمُرابطـين، وسـارَعَ إلى قضـاء الحاجـات. واصطَنَعَ إلى الأمير سِـير - أعـزَّه الله - وعوَّل عليه؛ فأَكْرَمَه الإكرام الشنيع. وأَلقَى ابنُ عَبَّاد يَدَه فى قُرُور، مُعَوِّلًا عليه فى القضيَّة، وبذل له أموالًا جسـيمة؛ والمُكثِر على كل حال يغلب المُقِلَّ، وإن شفَّ عليه باليسير. وأعطَى ابنُ رَشِيق الأمان، وبُولِغَ له فى التأْنيس، حتى غرَّه ذلك وانبسط له، وتاهَ على ابن عبَّاد، وأظهر مَعْصِيَتَه والانخياشَ منه، قائمًا فى ذلك بدعوة الأمير ومُسْنِدًا إليه، حتى أَفضَى ذلك به، إلى أن أمر أن تكون الخُطْبَة بُمرْسِيَة على اسْم أمير المسلمين دون ابن عبَّاد.

والمُعْتَمِـد * [ق ٤٥ ب] ، فـى هـذا كله، يَرَى مـن الأمر ما يغيظه ويكـر به ويتقطَّع منه حسـرات؛ وحُـقَّ له، فلم يَنَمْ عن القضيَّة، وأَحْكَمَها مـع الفُقَهاء، واحتجَّ عليه بأحكام السُّـنَّة، وكان ممَّن اصطنع على ذلك ابنُ القُلَيْعِىّ، وهو يفخر بالأمر عندنا، ويقول: «سَـيَرى ابن رَشـيق ما يحل به! فقد شُـوورنْا فى أمْـره. وإن جُعِلَ لنا مَجْلِس لغـيره، فَعَلْنا به مِثْل ذلك!» وكانت هذه الكلمة ممَّا أَوحَشَتْنا وغيَّرت أنفُسَنا عليه، مع تهدُّده تلك السفرةَ، وضرْبه الأمثال، وحِدَّةِ معانيه، واستطالَتِه بلسانِه، وأميرُ المسلمين لا يشعر بشىءٍ من ذلك، ولا نقدر نَحنُ نشكو به بلا بيِّنة ولا إقامة بُرْهان: فتكون له الحُجَّةُ، ونَقَعَ نَحنُ فى الخزى، لا سيمًا بما كان يَنْتَحِلُ من [أهل] العِلْم.

وإنَّ أميرَ المسلمين، لما رأَى حالَ ابن عبَّاد مع ابن رَشِيق، واختلافَ ما بينهما، أَعمل فى ذلك عَقْلَه، ودبَّره برأيه، وقال: «ما تنبغى لنا مُفاسَدةُ ابن عبَّاد من أجْل ابن رَشِيق، لاحتياجنا إليه فيما نَحنُ بسـبيله، ونَحنُ لم نأْمن أَمْرَ الرُّومىِّ. والأَوْكَدُ علينا فى هذا الوقت مُداراةُ ابن عبَّاد، حتَّى تُرِينا الأمور وُجوهَها!» فتعسَّف على ابن رشيق فى الذى أظهر من الخِلاف على صاحبه، وقال له: «ماكان يجب لك أن تقدم بدعوتى للقيام على رئيسك، فتُوقعَ بَيْنى وبَيْنِه الشـحناءَ!» وقال فى نفسـه: لم يفعل ذلك ابنُ رشـيق إيثاراً لى ولا مَحَبَّةً لجِهَتى! اكتثر من اضطرام النار على صاحبه وإشـغالِه بى عن نفسـه، ولا سيَّما أنَّ مَعُونته للرُّوم بلِيِّيط لم تَخْفَ علـى أحـدٍ؛ يعتَقِدِ أنَّ ببقائها يثبُتُ فى مُرْسِـيَة!» فكان أبَدًا يميرُهـم ويقوِّيهم بما يعجزون عنه، إبقاءً لرَمَقِهم، وخَوْفًا من الداخِلة عليه بفقدِهم.

وصحَّ ذلك عند الأمير، والمُعْتَمِدُ فى هذا كلِّه لا يَنَامُ عنه، ويَسْتَفْتِى فيه الفُقَهاءَ، لنفاقِه بعد دخوله فى البَيْعة له أوّلَ أخْذِهِ لمُرسِيَة. فاتَّفقَتْ عليه الأسباب. وصُنِعَ له مَجْلسٌ أفْتَوْا فيه بإزَاحَتِه عن المسلمين، وإسلامِهِ لسُلْطانِه. فاستغاث عند ذلك [ق ٤٦ أ] بالأمير، فأجابَهُ: «إنّه لو كان لك عندى حقٌّ، لوَهَبْتُهُ لك، غيرَ أنها أحكام السُّنّة، لا أستطيعُ على إزاحتها عن مَرَاتِبها!» وأمر بتَثْقِيفِهِ وإسلامِهِ إلى المُعتَمِد. وقَيَّد فى الحديد، ورأى هوانًا عظيمًا. وأمَرَ المُعْتَمِد الراضي ابنَه أن ينزل فى مَحلّته على المقام، وكأنَّه لم يكن بالأمس. وأرْسَل الأمير إلى أهل مُرسِية يأمرُهم بالرجوعِ إلى صاحبهم والطاعة له، فخالف كلُّ من فيها من ابنِه وقَرابته، وثقّفوا مدينتهم وجَفَوْا كلَّ من مضى إليهم. وامتنعت الحال على ذلك، بعد وسائط كثيرةٍ تكرَّرت بينهم؛ فلم يقدر معهم على شيءٍ.

٥٤ - رفع الحصار عن لَيْيط
تفرُّق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم

وشاخَت المَحَلَّة، وطالَ مكْثُها، وملَّ الناسُ إلى أن ورد الخبرُ بقُدوم أَلْفُونْش إليها، فساءَت الظنونَ من أجْل ذلك. ورأى أمير المسلمين أن الرجوعَ عنها والانصرافَ أَوْلَى، لطولِ مُكْثِ الناس وفشلِهم، مع جمام القادِمين من الرُّوم ومع خِلاف مُرْسِيَة، لئلا يسندوا إلى ميرها ومَرافِقِها إذ أنهم أرسلوا عن أَلْفُونْش وَقتَ خِلافِهم. فأَخَذَ فى الانصراف.

ووَقَعَتْ بَيْنَ المُعْتَمِد والمُعْتَصِم، صاحِب المَرِيَّة، مُشاجَرات وتباعات باردةٌ فى معاقِل من نَظَر الجَبل وفى أَمْر شُرْبَةَ، ما وقع فيه الشكوَى إلى الأمير. وانفَصلا على غير موافَقة: كلُّ ذلك من المنحسة المَقْضِيَّة عليهما.

ومِثْلُ ذلك جَرَى لنا مع أَخينا صاحِب مالقَة، وجعل يُكَرِّرُ فى ذلك النَّظَر الذى تَكلَّمَ فيه سَفْرَةَ بَطَلْيَوْس، وحَفَزَ فى ذلك بزَعمه، وقال لى بقِلَّة دُرْبَتِهِ: «إنّما منَع من ذلك السَّفْرةَ الأُولى ذِكْرى له عند انفصال الأمير، فلم يُدْرِكْ ولا أَدْرَكْنا! والآن، فلابُدَّ من ذِكْرِه على سَعَةٍ: وإلاّ، فالحقُّ بينى وبيْنك!» فلم نُخفْ لقوْله، ولا كابَرْتهُ، لعِلْمى أنَّ الأمير لا يحفل بشيءٍ من هذا كلِّه. ولمَّا رأى أمير المسلمين كثرة طَلَبِهِ لنا. أرْسَلَ إلينا قَرْورًا، يقول لنا: «لا يَرِبْكَ شكوىَ أَخيك، فإنَّ السلطان لا يَسَعُهُ أن يقول له: «اسْكُتْ عن طَلَبِك!»، ولا يعطيه عليك يدًا، غَيْرَ أنّنا نُلَوِّى القِصَّةَ مَرْحَلةً [ق ٤٦ ب] بعد مرْحلة، حتَّى يَقَعَ الانفصال. «فشكرتُهُ على ذلك. وقال: «إنَّ غرنْاطة عليه آكَدُ من مالَقَة لاحتياجِهِ إلى الاجتياز عليها فى غَزَوَاته، وما أشبهَ ذلك من المَرافِق؛ فتقدَّمْ أنت الآن، وأَعِدَّ جَهْدَك ما يَجِبُ من ضيافة السلطان إذا [كان] خطورةٌ عليك، وهو مارٌّ بك على غَرْنَاطة فى انصِرافه!» فسرَّنى ذلك، وتقَدَّمْتُ إلى وادى آش، وأعدَدتُ له ما كان جَديرًا به.